من ملامح الإعجاز في القصص القرآني

د. غصاب نهار مطر الحَوَري (★)

المقدمة:

القصص القرآنية وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم ، ومظهر من مظاهر بلاغته وبيانه ، فقد قدّم نماذج من التاريخ الماضي والحاضر والمستقبل، يعجز أي قاص بشري أن يقدّم مثلها .

إنّ القصة – بشكل عام – تحظى بمكانة متميزة في الأدب، وتعدّ من الفنون الأدبية ، ويبرز دورها وأهميتها في غرس القيم الأخلاقية والصفات الحميدة في النفوس، والمتمثلة في قيم الاحترام والمحبة والتعاون ، والإخفاء وغيرها من قيم الأخلاق المختلفة .

ولقد اهتم الفلاسفة والمربون منذ أقدم العصور بالقصة التي يجب تقديمها إلى الفرد بقصد تربيته وتهذيبه، نظراً لأنها هي الوعاء المناسب الذي يمكن من خلاله تقديم الأفكار التي ترغب في إيصالها للمتلقين ، والقيم المراد غرسها في نفوسهم ، لذلك برز اهتمام القدماء بالقصص، وتبيّنوا قيمها النفسية والتربوية، فكانت الأمهات تحكي للأطفال قصص الأمجاد ، وبطولات الفرسان في الحروب والمعارك ، وقد أولى (أفلاطون) أهمية كبيرة للقصة وجعل لها شروطاً تصبح بموجبها وسيلة تربوية جيدة لتربية النشء .

وقد اهتم بدراسة القصة القرآنية عدد من الباحثين ، ويعدّ (سيد قطب) أوّل من ركّز على مجال القصة في العصر الحديث ، بوصفها عنصراً مميزاً في بلاغة القرآن الكريم وفصاحته ، وقديماً قام العديد بجمع القصص القرآني وشرحه.

وفي هذا البحث سنقوم بإبراز بعض ملامح الإعجاز في القصص القرآني ، وذلك من خلال العناوين الآتية :

أولاً – مفهوم القصة القرآنية .

ثانياً – أهمية القصة القرآنية .

(★) أستاذ البلاغة والنقد المساعد - جامعة الجوف. المملكة العربية السعودية.

ثالثاً – أنواع القصة القرآنية .
رابعاً – السمات الفنية والبلاغية للقصة القرآنية .
وفي الختام لا أدّعي أنني قدّمت الكلمة الفصل في هذا المجال ، وإنّما هو الاجتهاد فإن أصبت فمن الله ، و إن أخطأت فمن نفسي .
وأسأل الله – عز وجل – أن يكون هذا في ميزان حسناتي ، وأن ينال القبول والرضا .

والله ولي التوفيق

أولاً – مفهوم القصة القرآنية :

أ – المعنى اللغوي للقصة : القصة مشتقة من القص [1]، وهو تتبع الأثر ، قال تعالى: ﭽ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﭼ [القصص: ١١] : أي تتبعي آثاره على ما انتهى إليه أمره . وقوله تعالى : ﭽ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﭼ [الكهف: ٦٤] ، ومن هذا قصّ الأثر : أي النظر فيه ، وأقتفاء آثاره وشواهده ، يقال : قصصت أثره واقتصصته وتقصصته ، وخرجت في أثر فلان قصصاً ، وقصّ عليه الرؤيا ، ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭼ [يوسف: ٥]

والقص للأثر أشبه بما يعرف في عصرنا بتصوير البصمات ، أو رفع الآثار وتصويرها ليستدل منها على ما وراءها من أحداث مضت ، وليمسك على إمساكه منها[2].

ب - والقصة في القرآن إنّما تتبع أحداثاً ماضية وتعرض منها ما يفيد عرضه في مجال الدعوة إلى التوحيد الخالص والخلق الفاضل . ومن هنا كانت تسمية الأخبار التي جاء بها القرآن قصصاً مما يدخل في المعنى العام لكلمة خبر أو نبأ ، وقد استعمل القرآن الكريم الخبر أو النبأ بمعنى التحدث عن الماضي ، وإن كان قد فرّق بينهما في المجال الذي استعملا فيه جرياً على ما قام عليه نظمه من دقة وإحكام و إعجاز ، فاستعمل النبأ والأنباء في الإخبار عن الأحداث البعيدة زماناً أو مكاناً ، على حين أنّه استعمل الخبر والإخبار في الكشف عن الوقائع القريبة العهد بالوقوع ، أو التي لا تزال مشاهدها قائمة ماثلة للعيان.

([1]) انظر : لسان العرب : مادة قصص

([2]) القصص القرآني ، مفهومه ومنطوقة : ص45

ففي النبأ والأنبياء يقول الله تعالى في أصحاب الكهف چ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ چ [الكهف: ١٣]، ويقول سبحانه في شأن الأمم الماضية وما وقع فيها من مثلات: چ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦ ڦ چ[هود: ١٠٠]

ويقول – سبحانه – فيما يقصّ على نبيه من قصص الأولين : چ گ گ ڳ ڳ ڳ ڳ ڱ ڱ ڱ ڱ ں ں ڻ ڻ ۀ ۀ ہچ [هود: ٤٩]

وفي الخبر والأخبار يقول سبحانه وتعالى مخاطباً المؤمنين چ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ چ[محمد: ٣١]

ويقول جل شأنه فيما يكون من أحداث يوم القيامة : چ ڃ ڃ ڃ ڃ چ چ چ چ چ[الزلزلة: ٤ – ٥]

والتحديث بالأخبار إنّما يكون في هذا الوقت الذي تقوم فيه الساعة .

وفي مجال الأخبار الواقعة في وقت نزوله والأخبار التي وقعت بعده يحدثنا الكثير منها ، فيكشف خباياها ، ويبيّن وجه الحق فيها ، كما نرى ذلك في حديث الإفك ، وفي وقعة بدر وأحد وحنين ، وفي بيعة الرضوان ، وصلح الحديبية ، وغير ذلك كثير مما جاء بها القرآن في أحوال شؤون ملابسة لنزوله

كذلك أخبر – سبحانه وتعالى – عن الصراع الذي كان دائراً بين الفرس والروم ، وأنّ معركة ستدور بعد بضع سنين سيكتب النصر فيها للروم على الفرس چ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ چ[الروم: ١ – ٤]

كما أخبر المولى – عز وجل – عن فتح مكة ودخول الناس أفواجاً في دين الله في قوله تعالى چ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ چ[النصر: ١ – ٣]

وكما أخبر عن هزيمة المشركين يوم بدر بقوله سبحانه : چ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ چ[القمر: ٤٥]

وقد كان عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – يقول : كنت أقرأ هذه الآية وأتساءل: أي جمع هذا الذي سيهزم؟ حتى كان يوم بدر ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقرأ : چ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭچ[القمر: ٤٥]فرأيت الجمع المهزوم .

ومن هذا يتبيّن لنا أن القرآن الكريم يستعمل النبأ فيما مضى ، والخبر في

الأحداث المستقبلية غالباً [1] .

ثانيـاً – أهمية القصة القرآنية :

إنّ القصة كانت ولا تزال مدخلاً طبعياً يدخل منه أصحاب الرسالات والدعوات، والهداة والقادة إلى الناس ، وإلى عقولهم وقلوبهم ليلقوا فيها ما يرونه من آراء ومعتقدات ، وأعمال . ولعلّ عصرنا هذا هو خير شاهد على ما للقصة من سلطان في الحياة ومن أثر في تغيير أوضاعها ، وتلوين وجوهها السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، إذ هي أقوى جهاز من أجهزة التأثير في قيادات الجماعات البشرية في الحرب والسلم على السواء . والتصوير والموسيقا كلّها تتبع القصة ، وتعمل على تجسيد كلماتها وتشخيصها وتلوينها ، وترخيمها حتى ينتظم من هذه الكلمات موكب حافل من مواكب الحياة في جدّها وهزلها وفي خيرها وشرّها وفي نعيمها وبؤسها ، وبهذا كان للقصة على الناس هذا السلطان الذي تجتمع ليده قوى الفنون كلّها ومالها على الناس من تسلّط وسلطان.

إنّ الإنسان هو محور القرآن الكريم الأساس، من أجله جاء ، ولإقامة أنموذجه الذي يرتضيه الله تنزّل ، وعلى امتداد آياته وسوره كان حضوره القوي الجلي ، وكانت حركته وضجيجه وأنفاسه الحارة الممتدة من لحظة خلقه الأولى إلى آماد لا يعلمها إلاّ الله – جلّت قدرته.

ولقد تعدّدت صور تناول الشخصيات القرآنية عند الباحثين لكنها ربطت بالغالب بالقصة القرآنية [1] .

فالقصص القرآني لا يقل الحيّز الذي شغله من كتاب الله تعالى عن الربع إن لم يزد قليلاً، فإذا كان القرآن ثلاثين جزءاً فإنّ القصص يبلغ قرابة الثمانية أجزاء من هذا الكتاب الخالد ، ولا عجب من ذلك ، لأنّ القصة القرآنية لم تأت لتقرر هدفاً واحداً ، بل إنّ هذا القصص كانت له أهدافه الكثيرة ، وغاياته المتعددة ، وعلى سبيل الإجمال يهدف القصص القرآني إلى تربية الإنسان تربية تضمن له خير المسالك ليتبوَّأ أفضل المدن والممالك ، وتحول بينه وبين المنزلقات والمهالك [2].

(1) انظر: القصص القرآني مفهومه ومنطوقه ص 45– 47. قصص القرآن ص 6 – 8

(1) الشخصيات القرآنية : ص 16 – 32

(2) القصص القرآني ، إيحاؤه ونفحاته : ص 9 - 10

وإذا أردنا أن نفصّل ، فإننا نجد أنّ أهمية القصص القرآني تبرز في الآتي :

1 -تعميق العقيدة في النفوس ، ونفي الخرافات والأفكار القديمة ، إذ يبدو بكل وضوح في القصص القرآني أنّه يتجه في جملته إلى إرسال دعائم الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره ، وذلك بذكر أقوال المرسلين وأفعالهم ، وتصوير ما هم عليه من كمال في الدين ، وسمو في الخلق ، ونبل في السلوك . وفي مجال الرسالة ركزّت القصة القرآنية على الصفات الخيرة للأنبياء ، ليكون للناس فيهم أسوة ، وبهم قدوة ، فهم وإن كانوا بشراً إلاّ أنهم أكرموا بالوحي والرسالة ، قوله تعالى : ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭼ[الأنبياء: ٢٥]، وقوله تعالى: ﭽ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﭼ[النحل: ٣٦]

2 -إثبات الوحي والرسالة : كانت أميّة النبي –ﷺ- وعدم جلوسه إلى أحبار اليهود ، وعلماء النصارى ، دليلاً على أنّ القصص الواردة في القرآن الكريم وحيّ يوحى ، قال تعالى : ﭽ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﭼ[يوسف: ٢ – ٣]

3 -السمو بهذا الإنسان حتى يمتاز على الحيوان الذي يشترك معه في بعض الصفات ، هذا السمو الذي لا يركز على جانب واحد في هذا الإنسان ، فهو سمو روحي وخلقي ونفسي يشعر به الفرد ، ونجد به حلاوته ولذّته ، وهو بعد ذلك سمو اجتماعي تجد الجماعة فيه بغيتها وأمنها وضالتها وفضيلتها ، والقصص القرآني يسلك أكثر من أسلوب للوصول بالإنسان إلى هذه النتيجة الطيبة .

4 -إثبات أنّ الدين كلّه من عند الله : من أوّل نوح إلى محمد - عليهما السلام – كلّهم أمّة واحدة ، والله واحد ربّ الجميع ، وهذه الحقيقة قد تأتي من سور متعددة ، وقد تأتي في سورة واحدة تضم عدداً من قصص مجموعة من الأنبياء، وما جاء في سورة الأنبياء خير مثال على ذلك ، حيث نتأمل قصص موسى وهارون وإبراهيم ولوط ، وداود وسليمان ، وأيوب و إسماعيل، و إدريس، وذي النون ، وزكريا ويحيى ومريم ، وبعد سرد هذه القصص . يأتي قوله تعالى: ﭽ ﭛ

ٹ ٹ ٹ ڈ ڈ ڈ ژ ژ چ[الأنبياء: ٩٢]

5 -بيان أسباب الهلاك التي يمكن أن تصيب الأمم والجماعات والأفراد ، وقد فصّل القرآن الكريم ذلك تفصيلاً عجيباً ، وهو يتحدّث عن الترف والطغيان، والبطر والظلم ، والاستعباد الفكري ، والسخرية والرضا بالذل إلى غير ذلك من الأسباب الكثيرة المبثوثة في ثنايا القصص .

6 -إبراز وحدة الرسائل الدعوية : فالوسائل التي يتبعها الأنبياء في الدعوى موحدة، وأيضاً فإن استقبال الناس للدعوة متشابهة ، فضلاً عن أنّ الدين من عند الله ، وأنّه قائم على أساس واحد .

7 -التركيز على أنّ التديّن الحقّ لا ينفصل عن الحياة العملية ، ولا ينفصم عن واقع الإنسان ، وإنّما هو مرتبط ارتباطاً وثيقاً بل هو جزء منه .

8 -التبشير والتحذير : ويقدّم القصص القرآني تصديقاً للتبشير الإلهي رحمة من الله ، وتحذيراً من عقابه ، قال تعالى چ ئۇ ئۇ ئې ئې ئى ئى ئد ى ى ي ي چ[الحجر: ٤٩ – ٥٠]

9 -التنبيه إلى غواية الشيطان : ويتكرر هذا التنبيه لآدم و ذريته ، وتحذيرهم من غواية الشيطان ، وتذكيرهم بالعداوة المستمرة بينهم وبينه ، وهو ما يفسّر تكرار قصة آدم في العديد من المواضع[1]

10 -وفي قصص القرآن تقويم للأخلاق ، وتزكية للنفوس، وتهذيب للطباع من خلال ما يبثه على مسامع الناس من المواعظ والصبر والمواقف الدالة بمضمونها على نوازع الخير والشر في الإنسان، والتنبيه على سبل الخير، وسبل السلامة من دوافع الشر.

11 -تفصيل أسباب السعادة الروحية، وكذلك أسباب الرقي المادي حتى تتم السعادة للمؤمنين بهذا القصص العاملين بتوجيهاته وإرشاداته .

12 -في هذا القصص كثير من الحقائق العلمية المتعلقة بالكون والإنسان ، والحياة والأحياء في السماوات والأرض، والتي يبرزها التطور العلمي، وتداول الأيام وضوحاً وظهوراً.

13 -ما في القصة من رونق الأسلوب، وبديع النظم ، وجمال الصورة، مما

(1) التصوير الفني في القرآن : ص 120 – 128

ترقص له قلوب الأدباء، وما فيها كذلك من المواقف والتحاليل النفسية، والاستنتاجات الكامنة وراء الأحداث التي يجد فيها علماء النفس بغيتهم .

14 -النهوض بالهمم : فهي تستعيد ذكريات الماضي، وأمجاد الإسلام، وبطولاته، ومواقف الصحابة والتابعين الكرام .

15 -العبرة والعظة لمن وهبه الله عقلاً يتفكّر ويتدّبر : چ ئا ئه ئه ئو ئو ئۇ ئۇ چ [يوسف: ١١١]

والخلاصة أنّ مقاصد القصص القرآني وغاياته هي الدعوى إلى الحق، والهداية إلى مواقع الخير، وإقامة وجه الإنسانية على مسالك الحق والخير، والميل بها عن مسارب الضلال والبوار، فليس في القصص القرآني إلاّ حرب على العواطف المريضة ، وتلك الميول المنحرفة ، يلقاها في حزم وحسم ، وينزل أصحابها منازل البوار والهوان، ذلك لأنّه كما وصفه الله سبحانه بقوله : چ ٱ ب ب ب ٻ ٻ چ [آل عمران: ٦٢]. وما كان للحق أن يلبس الباطل أو يسلك مسالكه .

ثالثا – أنواع القصة القرآنية :

إذا أمعنا النظر في قصص القرآن الكريم وجدنا أنّ القصة يمكن حصرها في الأنواع الآتية :

1 - القصة القصيرة الموحية : والتي تعبّر عن موقف محدد في زمان ومكان محددين ، وتتناولها بضع آيات ، لتؤدي غرضاً وعظيّاً محدّداً وتقدّم نمطاً إرشادياً تربوياً ، وذلك كقصة صاحب الجنتين في سورة الكهف ، والتي جاءت في الآيات الكريمة : چ و ۇ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ئا ئا ئه ئه چ [الكهف: ٣٢]إلى قوله تعالى : چ ئۇ ئۇ ئۆ ئۆ ئۈ ئۈ ئې ئې ئى ئى ی ی چ[الكهف: ٤٤] فبين الآيتين وقعت أحداث ، ودار حوار بين الرجلين الأول : صاحب الجنتين المغرور بكثرة ماله ، وعظمة جاهه ، والآخر : المؤمن بربه، المتواضع لخالقه، الواثق من تأييد خالقه له، وكان الهدف من القصة – والله أعلم – الدعوة إلى عدّة قيم أخلاقية إيمانية أعلاها الإيمان بالله تعالى، والتواضع لعظمته ولخلقه والاعتراف بفضله قبل أن تأتي لحظة لا يجدي فيها الندم ولا ينفع، وقد حققت

القصة هذا الهدف من خلال ثلاث عشرة آية[1]

ومن هذا النوع أيضاً قصة قارون والتي حملتها الآيات من ست وسبعين إلى اثنتين وثمانين من سورة القصص . وقصة أصحاب الجنة في سورة القلم، والتي وردت في الآيات من سبع عشرة إلى ثلاث وثلاثين . وغيرها من القصص المبثوثة في كتاب الله العظيم.

2 - القصة الطويلة المتكاملة :

وهذا اللون تحتويه سورة واحدة من بدايتها إلى نهايتها ، فلم توزّع أحداث القصة، بل جاءت متتابعة في إحكام ، تتابع الزمان والمكان فيها عبر آياته الكريمة من البدء إلى النهاية، ولم يوجد في القرآن ما يمثّل هذا النوع سوى سورة يوسف عليه السلام، والتي تناولت قصة يوسف – عليه السلام – من طفولته إلى كهولته . وفيها نجد وثبات سريعة كيف عالجت قصة يوسف المواقف الحيوية ليوسف عليه السلام ، وفي ثناياها تنتشر القيم الأخلاقية التربوية وأبرزها الاعتصام بحبل الله في الأزمات ، والإيمان به – سبحانه وتعالى – وكيف يهيئ - الله عز وجل – لعباده المخلصين سبل الفوز والنجاة إلى غير ذلك من القيم، وأبرزها وجوب شكر الله على فضله كما فعل يوسف – عليه السلام – عندما جمع الله شمله بباقي أهله حيث خرّ ساجداً لله مناجياً إياه : چ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ې ى ى ئا ئا ئە ئە ئو ئو ئۇ ئۇ ئۆ ئۆ ئۈ ئۈ چ [يوسف: ١٠١]

ومن الإعجاز في هذه القصة أنّها كانت قائمة في مجملها على أسلوب الحذف في تسلسل أحداثها من بدايتها إلى نهايتها، لكنّ المتدبّر فيها يستطيع أن يفهمها ويربط أحداثها، و أن يأتي بالمحذوف المناسب في كلّ موضع ، فبلاغتها في إيجازها .

لأن الإيجاز دلالة من دلائل الإعجاز القرآني : ((ومن أراد أن يعرف جوامع الكلم ويتنبه على فضل الإعجاز والاختصار ويحيط ببلاغة الإيماء ، ويفطن لكفاية الإيجاز فليتدبر القرآن ، وليتأمل علّوه على سائر الكلام))[2]

([1]) البلاغة القرآنية : ص 364 – 365

([2]) الإعجاز والإيجاز : ص 15

3 - القصة الطويلة المجزّأة إلى حلقات :

قصة آدم عليه السلام من لحظة خلقه واستقراره في الجنة ثم هبوطه للأرض، وما حدث بعد ذلك من إعمار الأرض بذريته، وقد تناول القرآن هذه القصة في السور الآتية : البقرة، آل عمران، المائدة ، الأعراف، الإسراء، الكهف ، مريم، طه، يس...

وكذلك قصة موسى عليه السلام – في بني إسرائيل، ورسوله إليهم وقد جاءت حلقات قصة موسى منذ لحظات ولادته، وأيام طفولته، وحياته في قصر فرعون إلى أنّ فرّ عبر سيناء إلى أرض مدين، ثم العودة إلى مصر حيث أوحي إليه وهو في الطريق إليها في طور سيناء ، وما حدث بينه وبين فرعون وقومه ، وكيف خرج بعد ذلك ببني إسرائيل فراراً من فرعون وجنوده.

وقد جاءت تلك القصة موزعة في ستة وثلاثين موضعاً في القرآن على وجه التقريب ، ووردت إشارات إليه – عليه السلام – ما يقرب من مائة وسبع وثلاثين مرّة.

ومن القصص الطويلة المجزّأة أيضاً قصة إبراهيم عليه السلام حيث جاءت موزعة على اثنتي عشرة سورة أبرزها ما جاء في سورة البقرة ، والأنعام ، وهود ، وإبراهيم ، والحجر ، ومريم ، والأنبياء ، والحج ، والعنكبوت ، والصافات،...

حيث تناول القرآن الكريم ما حدث لإبراهيم في صباه حينما أنكر عبادة قومه للأصنام، وكيف ترسخت كراهيته لتلك الأوثان في قلبه ، ووصفت لنا حيرته في البحث عن حقيقة الإله المعبود ، ثم هداية الله ، وتيقنه بأن المعبود بحق هو خالق هذا الكون وما فيه ، وتبع ذلك ما قام به من هدم الأصنام ، وما حدث بعد ذلك من ابتلاء الله له بأمره إياه بذبح ولده ووحيده إسماعيل – عليه السلام ... وغير ذلك من الأحداث.

ومثل ذلك في قصص معظم الأنبياء السابقين مع أممهم كقصة نوح ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، وكذلك يونس ولوط وغيرهم من أنبياء الله عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى السلام [1] .

(1) البلاغة القرآنية : ص 270 – 271

رابعاً – السمات الفنية والبلاغية للقصة القرآنية :

بادئ ذي بدء نقرّر أنّه لا مفاضلة ولا معادلة ولا موازنة بين قصص القرآن الكريم وغيره بأية حال وعلى أي اتجاه ، فإذا قلنا – أو قال غيرنا – إنّ قصص القرآن يتميّز عن قصص الناس بكذا وكذا فإنه من باب ذكر وجوه الإعجاز للعظة والاعتبار بغض النظر عن المقارنة والمفاضلة والموازنة وما إلى ذلك ، فأين الثرى من الثريا ؟

وجدير بالذكر أن نتعرف على أبرز عناصر الجمال الفني في القصص القرآني ، وقد أوضحنا آنفاً أنّ القصة القرآنية قائمة على أغراض دينية بحتة والواقع أنّ هذه الأغراض تتحقق في ظل الجمال الفني الذي يسبر أغوار النفس الإنسانية ، ويودع في الوجدان أعمق الآثار .

ويمكن تلخيص السمات الفنية والبلاغية للقصة القرآنية في الآتي :

1 -واقعية الأحداث : فالقصص القرآني ليس خيالياً متوهماً ، بل هو واقعي في أحداثه ، واقعي في صوره ، يحقق من وراء ذلك أهدافاً واقعية ، وواقعية القصص مستمدة من منهج القرآن في التعامل مع جميع الخلق ، ومع سائر النماذج البشرية ، فالقرآن الكريم لا يسوق قصة إلاّ ليواجه حاله ، ولا يقدّر حقيقة إلاّ ليواجه بها باطلاً ، إنّه يتحرك حركة واقعية حيّة في وسط واقعي حيّ، ولا يقصّ قصة لمجرد الإمتاع والتسلية بل لتحقيق هدف ديني أخلاقي، أو إرساء قيمة اجتماعية، أو تدعيم قيم سلوكية تربوية، وكل قصص القرآن تتفق في الغاية التي يهدف القرآن إليها من ورائها .

2 -الغاية في قصص القرآن الكريم تكون معلنة غير مضمرة تأتي من خلال الألفاظ التي تورد وقائعها حيناً ، وقبل هذه الوقائع حيناً وبعدها حيناً آخر .

3 -لم تلتزم القصة القرآنية نسقاً واحداً من حيث الطول والقصر، والإجمال والتفصيل ، فهناك القصة المفصلّة كما في قصة يوسف عليه السلام في سورة يوسف .

وهناك القصة المجملة كما في قصة نوح في سورة الأعراف ، وقصة موسى في سورة هود ، فلقد أجملت كل من السورتين ما فصلته الأخرى . كذلك سورة يونس فصلت بعض التفصيل في قصة موسى – عليه السلام – وأجملت

في قصة نوح – عليه السلام – [1] إنّ قصص القرآن الكريم قد جاء وفق الحياة التي يحياها الناس ، ولم يخرج على مألوفها ، ولو جاء على غير هذا لما كان للناس التفات إليه ، ولا انتفاع به فهو وإن يكن سماوي المطلع فهو بشري الصورة، إنساني المنازع والعواطف والناس .

يأخذ من الحياة للحياة، يقرؤه الناس ويسمعونه، وكأنهم يقرؤون أطواء أنفسهم، ويسمعونه همس ضمائرهم، ووسوسة خواطرهم ، ومن هنا فهم يعيشون فيه، ويحيون معه، وينتفعون به انتفاع الأرض ، يصيبها الغيث فيقع منها مواقع مختلفة بين وديان وسهول، وجبال وقيعان وأحراش[2].

4 -إنّ كلّ قصة قرآنية مجملة أو مفصلّة ، قصيرة أو غير قصيرة جاءت لتفي بالغرض الذي سيقت من أجله ، فليس قصر القصة يشعر القارئ بشيء من النقص ، بل ربما يذكر في القصة القصيرة ما لا يذكر في غيرها ، ولعلّ خير مثال على ذلك ما ذكرته قصة نوح في سورة العنكبوت .

5 -إنّ بعض القصص القرآني لم يذكر إلاّ مرّة واحدة ، وبعضه الآخر ذكر أكثر من مرّة ولعلنا ندرك السبب في ذلك، فالقصة التي ذكرت أكثر من مرّة في كتاب الله كانت ذات صلّة وثيقة بقضية الدعوة والدعاة إلى الله تعالى .

أمّا التي ذكرت مرّة واحدة فمع سمو الحقائق التي قررتها، وما فيها من مناهج تربوية وغايات رائدة إلاّ أنّها لم تكن تتحدّث عن مجال الدعوة، إنّما كان حديثها في مجلات اجتماعية ، وجوانب إنسانية ، وقيم خلقية تمد الباحثين والعلماء بقبس لا يخبو على مدى الدهر وذلك مثل قصة يوسف عليه السلام ، وقصة موسى مع العبد الصالح التي جاءت في سورة المائدة ، ومع قومه في ذبح البقرة[3] .

6 -إنّ القصص الذي ذكر أكثر من مرّة في كتاب الله لا نجد منه قصة واحدة ذكرت في سورتين اثنتين بطريق واحدة ، بل نجد كل قصة جاء فيها ما لم يجئ في الأخرى ، ففي كلّ قصة من المشاهد والجزئيات والأحداث ما تفردت به

([1]) القصص القرآني ، إيحاؤه ونفحاته : ص 22

([2]) قصص القرآن : ص 9

([3]) القصص القرآني ، إيحاؤه ونفحاته : ص 23

السورة التي ذكرت فيها هذه القصة .
7 -من إعجاز القرآن الكريم أنّه يتخيّر النسق القرآني المناسب للقصة ، فهو يتخيّر الأسلوب المناسب للفكرة ، وينوع في نظام الفواصل والقوافي بتنوع الموضوع الذي يعرضه ، ويتبع ذلك طول الفاصلة وقصرها وطريقة بنائها اللفظي من حيث السهولة والخشونة وتخيّر الحرف الأخير الذي تختم به .
وأضرب مثلا على ذلك بسورة مريم، فالسورة تبدأ بقصة زكريا ويحيى ، وتليها قصة مريم وعيسى ، وتسير الفاصلة والقافية هكذا : ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭼ[مريم: ٢ – ٣]
ثم يقول : ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﭼ[مريم: ١٦ – ١٧]
إلى أن تنتهي القصتان على روي واحد ، و إذا بهذا النسق يتغير فجأة ويخرج عن الروي المعهود وذلك في قصة عيسى عليه السلام ، على النحو الآتي : ﭽ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﭼ[مريم: ٣٠ – ٣١]
ويسير هذا النسق إلى الآية السابعة والثلاثين . و إذا انتهى القرآن من إصدار الحكم وإلغاء القرار عاد إلى النظام الأوّل في القافية والفاصلة لأنّه عاد إلى قصص جديد على النحو الآتي : ﭽ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ ﰅ ﰆ ﰇ ﰈ ﰉ ﰊ ﰋ ﰌ ﰍ ﰎ ﰏ ﰐ ﰑ ﰒ ﰓ ﰔ ﰕ ﰖ ﰗ ﭼ[مريم: ٣٧ - ٣٨] إلى الآية الثانية والأربعين .
ثم يرد سياق آخر يشتمل على قصة إبراهيم عليه السلام : ﭽ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﭼ[مريم: ٤١ – ٤٢]
إنّ الإيقاع الموسيقي المتعدّد الألوان يؤدي وظيفة أساسية في البيان ، ويعتبر إشعاعاً للنظم الخاص في كل موضع من كتاب الله ، وقد جمع النسق القرآني بين مزايا النثر والشعر جميعاً(1) .
8 -ليس القصص القرآني تأريخاً للبشرية على النمط الذي يسلكه علماء

(1) روائع الإعجاز في القصص القرآني : ص 97 – 98

التاريخ ، والسير في تتبع الأحداث وتسلسلها ، وتحليلها وتعليلها في أزمانها وأماكنها المختلفة ، ولكنه قصص مختار مقتطع من التاريخ بالقدر الذي يخدم الدعوة إلى الله – عزوجل – ويفتح أبواباً واسعة للتأمل والنظر ، والعظة والاعتبار .

9 -في قصص القرآن توزيع عادل للمشاهد القصصية بين الحدث والشخصية بحسب متطلبات المقاصد السامية في عرض القصة في موطنها المناسب لها ، بحيث تبدو الشخصية بارزة إذا كان في بروزها عظة وعبرة ، وتتلاشى أمام الحدث عندما لا يكون للشخصية تأثير مباشر على السامع ، فالأشخاص في القصص القرآني لا يقصدون لذواتهم ، ولكنهم يُذكرون كنماذج بشرية في مجال الحياة الخيّرة أو الشريرة . وكذلك الشأن في الأحداث التي يعرضها القرآن في قصصه إنّها ليست إلا محاك اختبار تظهر فيها معادن الرجال ، وتختبر بها مواطن القوّة والضعف فيهم ومنازع الإحسان والسوء منهم .

10 -يتميز قصص القرآن الكريم بتعبيره الغني العجيب عن المواقف المختلفة بأساليب متنوعة ، تنسجم الانسجام كله مع تلك المواقف دون أن يؤثر ذلك على الإطار العام للقصة والنسق الفريد للنظم ، فأسلوب الرسل في التخاطب ليس كأسلوب عامة الناس، وأسلوب الملوك ليس كأسلوب السوقة، وأسلوب الرجال ليس كأسلوب النساء ، وأسلوب المتكلم في حالة الرضا ليس كأسلوبه في حالة الغضب وغير ذلك من الأساليب القصصية التي تنتقل بك من مشهد إلى مشهد، أو من حادثة إلى أخرى. چ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ چ[هود: ١]

11 -عنصرا الزمان والمكان لا يعدّ كلّ منهما من العناصر الأساسية في القصة القرآنية ، لأنّ القصص القرآني ليس من باب التأريخ – كما ذكرنا سابقاً – ولكنه عظات ونصح وتوجيه ، فلا يذكر فيه الزمان ولا المكان إلاّ إذا تعلّق بذكرهما فائدة .

12 -ذكر الأسماء في القصص القرآني أمر ثانوي أيضاً ، فكثير من الشخصيات التي تحدّث القرآن عنها لم يذكر لنا أسماءهم كالخضر ، ومؤمن آل فرعون ، وفرعون موسى، وعزيز مصر في قصة يوسف، والملك الذي سلّم

ليوسف زمام الأمور في مصر، والذي حاج إبراهيم في ربّه، لأنّ ذكر هذه الأسماء ليس هو المقصود بالذات، ولكن المقصود هو ما وقع لهم، أو ما جرى على أيديهم من الأحداث التي تخدم المقاصد، والأهداف التي جاء القصص من أجلها [1] .

13 -التنوع في العرض : لا تتبع القصة القرآنية أسلوباً واحداً في العرض لأّن هذا يسبب الملل إذا جاءت أحداثها على نسق واحد. فقد تعدّدت صور عرض الأحداث في قصص القرآن على النحو الآتي :

أ -طريقة الإجمال ثم التفصيل : حيث تأتي القصة مسبوقة بملّخص لها في البداية ، ثم تعرض التفاصيل من بدايتها إلى نهايتها ، كما حدث في قصة أهل الكهف ، حيث بدأت القصة بقول الله تبارك وتعالى : چ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ چ[الكهف: ٩]

هذا هو موجز القصة ، ثم توالت بعد ذلك تفاصيلها خلال الآيات الآتية لتلك الآية المذكورة وحتى الآية الثانية والعشرين من السورة الكريمة .

ب - العرض ممهّداً له بذكر المغزى والهدف من القصة في عرض القصة نفسها ، كما جاء في قصة موسى عليه السلام – في أوّل سورة القصص حيث بدأ التمهيد لقصة موسى عليه السلام : چ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ چ[القصص: ١ – ٣]

ثم بدأت القصة بقول الله تعالى: چ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ چ[القصص: ٧]

ج _ العرض المباشر بلا مقدّمات: كما جاء في سورة مريم حيث بدأت القصة مباشرة بقول الله تعالى: چ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ چ[مريم: ١٦]

14 -تنوع طرق المفاجأة : فمّرة تكتم المفاجأة التي تشتمل عليها القصة، ويستمر الكتمان حتى يكشف السّر للجميع في وقت واحد ، وذلك كما حدث في قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح الخضر عليه السلام في سورة الكهف ، وقد يكشف السرّ للنظارة وحدهم ويكتم عن أبطال القصة ، حيث يظل هؤلاء الأبطال في عماية حتى النهاية كما حدث في قصة صاحب الجنتين في سورة

(1) قصص القرآن : ص 10 - 11

الكهف ، وأصحاب الجنة في سورة القلم ، ومرّة ثالثة يخفى سرّ المفاجأة في موضع ما من القصة عن البطل، وعند النظارة في جانب آخر كما حدث في قصة بلقيس ملكة سبأ مع سليمان عليه السلام ، والتي أفصحت عنها آيات سورة النمل، فأسرار القصة لم يكشف عنها مرّة واحدة بل تراوحت بين الكشف والإخفاء حسب المواقف والأحداث بالنسبة للنظارة وأبطال القصة.

15 -الإيجاز البليغ : إنّ القصص القرآني من كلام الله – تبارك وتعالى – المعجز، والذي لا يحتاج إلى غير القليل من الكلام ، ولما كان القرآن الكريم هو المثل الأعلى في البلاغة والفصاحة فقد جاء القصص القرآني أنموذجاً من نماذج الإيجاز البليغ الذي تأتي الجمل من خلاله موحية سريعة موفية، مليئة بالوقائع، فياضة بالحركة مفهومه وإن كان فيها حذف كثير .

16 -إتقان الحبكة القصصية : فالقصة القرآنية يتصاعد فيها المدّ الدرامي بالتدرج حتى يصل إلى قمة الصراع، ثم يتجه الأمر نحو الحلّ تدريجياً بصورة قوية التماسك ، لا يبدو فيها أثر للتفكك، حتى ولو جاءت في حلقات كثيرة في القرآن الكريم.

17 -الدقة في العرض : حيث تعرض القصة القرآنية الأحداث بالقدر الكافي لتحقيق الهدف منها، دون زيادة أو نقصان، فإذا ما تطلّب الأمر واقتضى الحال إعادة عرض، جاء ذلك في سورة أخرى بحيث يتسق ما يعرض من القصة القرآنية في أية سورة من السور مع نسق السور واتجاهاتها . وما تهدف إليه، وبصورة تزيد الأمر إيضاحاً، والقارئ إقناعاً مع بعض إضافات جديدة .

18 -الفجوات بين المشهد والمشهد :

من الخصائص الفنية في عرض القصة القرآنية تلك الفجوات بين المشهد والمشهد، الذي يتركها تقسيم المشاهد، وقصّ المناظر، بحيث تترك بين كلّ مشهدين أو حلقتين فجوة يملؤها الخيال ، ويستتبع بإقامة القنطرة بين المشهد السابق والمشهد اللائق[1] .

وهذه طريقة متبعة في جميع القصص القرآني على وجه التقريب، ويمكن أن نلحظه في قصة يوسف عليه السلام على سبيل المثال، فقد قسّمت القصة إلى

([1]) التصوير الفني في القرآن : ص 54(1)

ثمانية وعشرين مشهداً[1] .

19 -وأخيراً وليس آخراً يمكن القول : إنّ القصص القرآني مستمر لا ينتهي تأثيره بمجرد الفراغ منه ، فهو صالح لكل زمان ومكان .

چ ﭐ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ چ[الأعراف: ١٧٦]. لذلك يمكن أخذ العبرة والدروس منه الآن ومستقبلاً .

الخاتمة

إنّ قصص القرآن الكريم هي قصص دينية يكتسب المرء منها القيم والصفات الحميدة، وقد اشتمل هذا الكتاب العظيم أفضل القصص التي تعمل على تنمية الخيال، والقدوة الحسنة، والتوجيه نحو كمال القيم الأخلاقية والسلوكية، وتنمية الفضيلة، وأخذ العبرة والدروس منها ومعظمها يدور حول الرسل، وجهادهم في دعوة قومهم، وتكذيب قومهم لهم، ثم بيان عاقبة هؤلاء المكذّبين .

والقصص القرآني له خصوصيته، فهو قصص حق، وأحسن القصص ، ومستمر لا ينتهي تأثيره، وهو دلالة واضحة على بلاغة القرآن وإعجازه .

ويبقى البناء القصصي في القرآني في نهاية الأمر يخدم الدعوة والدين، ويجعل الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني، فيخاطب الحاسة الدينية بلغة الجمال الفنية، ويخاطب الجمال الفني بالعاطفة الدينية، ويقيم القصة القرآنية وفقاً لتنسيق فني بين الديني والجمالي، مع تنوع في طريقة العرض والمفاجأة، وعدم إغفال لتصوير العواطف والانفعالات، فتكتمل بذلك بلاغة القص القرآني في صورة فريدة لا تسبقها صورة ولا تلحقها أخرى .

([1]) روائع الإعجاز في القصص القرآني : ص 88

وأخيرا يجب التنويه إلى أنّ العناوين المختارة في البحث وشواهدها جئت بها للتدليل على بعض ملامح الإعجاز في القصص القرآني، وليست عملية إحصائية شاملة لجميع شواهد القصص في القرآن الكريم .